قالت العرب
وأنت تعود الي البيت، بيتك، فكر بغيرك...
(لا تنس شعب الخيام)
وأنت تنام وتحصي الكواكب، فكر بغيرك...
(ثمة من لم يجد حيزا للمنام)
وأنت تفكر بالآخرين البعيدين، فكر بنفسك...
(قل: ليتني شمعة في الظلام)

المشهد

العدد 341 - السنة الرابعة عشرة - الثلاثاء 12 أغسطس 2025 م الموافق 18 صفر 1447 هـ

ما وراء الوقفة الاحتجاجية أمام السفارة المصرية فى تل أبيب

الإخوان المسلمون والترتيبات الإقليمية بعد حرب غزة

أثارت المظاهرة التى نظمتها الحركة الإسلامية فى إسرائيل، أمام السفارة المصرية فى تل أبيب يوم الخميس (٣١ يوليو)، شبهات فيما يخص الغرض الحقيقى لمنظميها، ذلك أن اختيار الجهة الداعية للمظاهرة، وهى اتحاد أئمة المساجد فى الوسط العربى فى إسرائيل، أن تكون المظاهرة أمام السفارة المصرية يشى بتحميل مصر وحكومتها المسؤولية عن المجاعة فى قطاع غزة، لاسيما أن المظاهرة جاءت فى توقيت شهد تنظيم عدة مظاهرات ووقفات احتجاجية أمام مقار السفارات المصرية فى عدة عواصم أوروبية، الأمر الذى دفع منتقدى المظاهرات إلى اتهام منظمى هذه المظاهرات بأن من بين أهدافهم إعفاءً إسرائيل من المسؤولية عن الحصار المفروض على القطاع. ولم تغير مشاركة شخصيات مناهضة لإسرائيل، من فلسطينى ١٩٤٨، مثل الشيخ رائد صلاح والشيخ كمال الخطيب ، هذه الاتهامات.

مظاهرة السفارة ويشارك فيها قياديون بينهم الشيخ رائد صلاح والشيخ كمال الخطيب

مظاهرة السفارة

صورة تذكارية مع جنود الاحتلال امام سفارة مصر

ولا يمكن إنكار مسؤولية إسرائيل والولايات المتحدة الأساسية والمباشرة عن الكارثة الإنسانية فى غزة والتى تطورت فى سياق حرب الإبادة والتهجير والتجويع التى تشنها إسرائيل فى أعقاب هجوم السابع من أكتوبر ٢٠٢٣، وهذه حقيقة يعلمها العالم كله، وتعلمها أيضًا قوى فى الوسطين اليهودى والعربى داخل إسرائيل، نظمت مؤخرا، مظاهرات ضد حكومة بنيامين نتياهو وضد السفارة الأمريكية فى تل أبيب احتجاجًا على تشديد الاحتلال الإسرائيلى الخناق والحصار على القطاع، وإصراره على إغلاق معبر رفح من الجانب الفلسطينى للضغط على حماس لإطلاق سراح الرهائن والقبول بشروط إسرائيل لوقف الحرب، ومسؤوليته عن الفوضى فى القطاع لمنع وصول المساعدات إلى سكان غزة الجائعين، من خلال جماعات مسلحة تسطو على شاحنات المساعدات التى تدخل من المعابر الإسرائيلية.

وبسبب الانتماءات السياسية لمنظمى المظاهرة أمام سفارة مصر، اتهمت وسائل الإعلام المصرية جماعة الإخوان المسلمين بالوقوف وراء المظاهرة التى نظمت فى حماية الشرطة الإسرائيلية للتشهير بمصر ومواقفها. لكن المظاهرة وتوقيتها والملابسات المحيطة بها، تشير إلى أن لمنظميها ومن يقفون وراءهم أهدافًا تتجاوز التشهير بمصر وقيادتها أو إعفاء إسرائيل من المسؤولية، وتتصل برغبة الجماعة فى توسيع هامش المناورة السياسية وإيجاد مساحة لها فى الترتيبات الإقليمية بعد حرب غزة، خصوصا إذا ما ربطنا بين هذه المظاهرة وتحركات القيادة السورية الجديدة بقيادة الرئيس أحمد الشرع والمنتمية لهذا التيار. ولا تنفصل سياسات الحكومة المصرية والأردنية ضد الإخوان المسلمين فى إطار الصراع على السلطة. وهو أمر لا يمكن فهمه دون فهم السياق العام الذى تتحرك فيه فصائل الإسلام السياسى على تنوعها، والذى تحتل جماعة الإخوان المسلمين مكانًا بارزًا على خريطته، باعتبارها الجماعة الأم التى خرجت من عباءتها جميع الفصائل والجماعات الإسلامية فى منطقة الشرق الأوسط، وفيما وراءها. ولا تنطلق هذه الحسابات من فراغ وإنما تمتد إلى تاريخ ممتد من العلاقات الخفية والعلنية بين القوى الغربية وبين الإسلاميين.

أسس التقارب

هناك أسس لاعتماد القوى الغربية والولايات المتحدة على جماعة الإخوان المسلمين فى تخطيط وتنفيذ سياساتها فى المنطقة، فالجماعة التى تأسست فى مصر فى عام ١٩٢٨، بعد أعوام قليلة من قرار الجمعية الوطنية الكبرى فى تركيا، إلغاء الخلافة الإسلامية فى مارس ١٩٢٤، هى أقدم جماعة فى هذا التيار الذى يجعل من العقيدة منطلقًا للعمل السياسي، يتجاوز الرابط الوطنية والقومية، فأسست فروعا لها فى الشام وفى الأردن وفى فلسطين فى عهد الانتداب البريطاني، وأقامت تحالفات مع الجماعة الإسلامية فى الهند وباكستان، الأمر الذى مكنها من بناء هيكل تنظيمى دولي، ووضعها ذلك فى قلب الاستراتيجيات الدولية فيما يخص منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامى فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. وتتميز الجماعة بمرونة عالية مكنتها من التواصل وإقامة جسور مع جماعات شيعية والتواصل مع القوى الأوروبية والغربية، وأتاح النهج البراجماتى (العملي) الذى يتبناه قادة الجماعة، هامشاً واسعاً من المناورة السياسية، عززه استعدادها لتبنى أشكال عصرية، مثل الأحزاب السياسية، واستعدادها لاعتناق أفكار واستلهام تجارب تنظيمية واردة من فلسفات غير إسلامية، مثل مفهوم الديمقراطية، والوطنية، والقومية. وساعدها ذلك على التكيُّف مع التغيرات على المستوى الوطنى والإقليمى والدولي، واستغلال أى حيز متاح للحركة لإعادة تقديم نفسها كفاعل يبدى استعدادا للتجاوب والتعاون مع الأطراف الدولية المؤثرة، كتنظيم وسطى ينتهج أساليبا سلمية وينبذ العنف، وقادر فى الوقت نفسه على التعامل مع التنظيمات الإسلامية الأخرى التى تنتهج العنف واحتوائها، كما يساعدها هذه المنهج على إعادة ترتيب أولوياتها وفقاً لتحليلها للتناقضات الرئيسية التى تتعامل معها، بما يتفق مع خطتها لتحقيق أهدافها المرحلية، وصولاً إلى تحقيق الهدف الأسمى وهو استعادة الخلافة بوصفها إطارا مؤسسيا للوحدة الإسلامية.

والبرجماتية قاعدة أساسية حاكمة للسياسات الغربية، يلخصها ونستون تشرشل، رئيس وزراء بريطانى فى عامى ١٩٤٠ و١٩٤٥، بمقولته الشهيرة "فى السياسة ليس هناك عدو دائم او صديق دائم هناك مصالح دائمة"، فالمصالح هى المحرك الرئيسى لاتخاذ القرارات، وبناء التحالفات والعلاقات سواء فيما بين الدول أو فيما بين الدول والجماعات المختلفة، على المستويات الوطنية أو دون الوطنية أو العابرة للدول. والتحولات فى سوريا المرتبطة بالحرب على غزة والتى أدت إلى الإطاحة بنظام الرئيس بشار الأسد باعتباره حليفا رئيسيا لإيران وركيزة أساسية لسياسات إيران الإقليمية التى تقوم على فكرة تعزيز محور المقاومة من خلال دعم فصائل موالية لها ومناهضة لإسرائيل، مثل جماعة حزب الله فى لبنان والعراق والحوثيين فى اليمن، لقد كان هذا التحالف داعما لنظام بشار الأسد لأكثر من عشر سنوات فى مواجهة انتفاضات شعبية اندلعت فى مارس ٢٠١١، ثم فى مواجهة معارضة مسلحة تقودها فصائل إسلامية سورية وأجنبية بقيادة جماعة الإخوان المسلمين فى سوريا والمدعومة من تركيا. لكن التعقيدات على الساحة السورية، التى تتفاقم نتيجة لتقاطع مصالح القوى الإقليمية والدولية مع مصالح القوى المختلفة داخل سوريا التى يغلب عليها الطائفى والعرقي، والتى قد تبدل من التحالفات والصراعات على الساحتين السورية والإقليمية، تدفع الجماعة إلى المناورة على الساحة الإقليمية والدولية الأوسع، وإرباك حسابات القوى الإقليمية والدولية، ومن هنا كانت فكرة تصعيد الحملة المعادية للنظام فى مصر.

أدى تَغَيُّر المعادلة الإقليمية فى أعقاب الإطاحة بنظام بشار الأسد واستيلاء تحالف جبهة النصرة بقيادة أحمد الشرع على السلطة فى بدعم إقليمى تقوده تركيا وقطر، والتوصل إلى تفاهمات مع الولايات المتحدة وروسيا، إلى تحولات فى البيئة الإقليمية إلى تحولات فى التحالفات الإقليمية على مستوى الدول والجماعات دفعت جماعة الإخوان المسلمين إلى إعادة حساباتها والسعى للارتباط بالقوى الدولية والإقليمية المنخرطة فى ترتيب الأوضاع الإقليمية والاستفادة من هذه الأوضاع لتعزيز تواجدها على مسرح الأحداث ذات الصلة بالتطورات فى منطقة الشرق الأوسط. وتكشف دراسات حديثة عن جوانب من العلاقات بين بريطانيا والولايات المتحدة وجماعة الإخوان المسلمين تعود إلى مطلع الخمسينيات، وكيف كانت الجماعة أداة رئيسية فى تحقيق أهداف السياسة الأمريكية والبريطانية فى المنطقة وفى سياسات الحرب الباردة، التى بلغت ذروتها فى محاربة الغزو السوفيتى لأفغانستان فى عام ١٩٧٩، وكيف تقاطعت مصالح تيارات الإسلام السياسى مع المصالح الأمريكية والغربية وتلاقت فى كثير من الحالات، والأهم أن مراحل الصدام بين الأهداف الغربية وأهداف هذه التيارات لم تصل إلى مرحلة القطيعة والعداء المطلق، نتيجة للتحولات داخل المشهد المعقد للتنظيمات الإسلامية مع صعود التيارات السلفية الجهادية التى وجهت عنفها المسلح للمصالح الأمريكية والغربية. فقد استطاعت جماعة الإخوان المسلمين على الرغم من هذه التحولات أن توجد لنفسها مساحة وهامشاً للتفاهم مع المصالح الأمريكية.

التحالف مع الشيطان

فى عالم السياسة المصالح تتصالح دائمًا، قد تتقاطع أحيانًا وقد تتعارض وقد تمضى فى توازٍ، أما المبادئ والثوابت فيجرى تكييفها وفق حسابات يمليها الواقع وتغيراته. فالقوى الغربية، وفى مقدمتها الولايات المتحدة وإسرائيل، تسعى لتحقيق هدفها وإن اقتضى ذلك التحالف مع الشيطان. وحظيت جماعة الإخوان المسلمين والتيارات الإسلامية الأصولية الأخرى باهتمام القوى المنخرطة فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى منذ فترة مبكرة تعود إلى السنوات التالية على الحرب العالمية الأولى وفى فترة ما بين الحرب، وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية، إذ رأت فى هذه الجماعات قوة قد تستفيد منها لتحقيق خططها واستراتيجياتها فى منطقة الشرق الأوسط، وهو أمر رصدته العديد من الكتب والدراسات المنشورة، ومن أهمها كتاب روبرت دريفوس، "لعبة الشيطان"، الصادر فى عام ٢٠٠٥، والذى يرصد دور الولايات المتحدة فى نشأة التطرف الإسلامى فى المنطقة، وكتاب إين جونسون، "مسجد فى ميونيخ: النازيون، وكالة الاستخبارات المركزية وبزوغ نجم الإخوان المسلمين فى الغرب"، الصادر عام ٢٠١٠. ويرصد الكتاب الأول الدور الذى لعبته بريطانيا ثم الولايات المتحدة فى دعم صعود جماعة الإخوان المسلمين وغيرها من تيارات إسلامية متشددة ومتطرفة، مثل حزب التحرير الإسلامي، والارتباطات المبكرة بين الولايات المتحدة وزعماء الإخوان المسلمين أوائل خمسينيات القرن العشرين، وقام بتوثيقها، إذ نشرت فى الكتاب صورة من المكتب البيضاوى فى البيت الأبيض فى واشنطن أواخر صيف عام ١٩٥٣، للقاء بين الرئيس الأمريكى دوايت إيزنهاور وسعيد رمضان، أحد الأقطاب المؤسسين لما يعرف بالتنظيم الدولى للإخوان المسلمين وصهر حسن البنا، مؤسس جماعة الإخوان المسلمين فى مصر، وكان عمره ٢٧ عامًا، برفقة وفد من الباحثين والشيوخ والناشطين من الهند وسوريا واليمن وشمال أفريقيا. واحتلت التيارات الأصولية موقعًا مهمًا آنذاك فى السياسات الأمريكية فى حقبة الحرب الباردة فى مواجهة الاتحاد السوفيتى وكذلك فى مواجهة حركات التحرر الوطنى فى الشرق الأوسط المناهضة للسياسات الأمريكية والغربية.

بينما يشير الكتاب الثاني، "مسجد فى ميونيخ" إلى تلاقى مصلحة ألمانيا النازية مع مصلحة المخابرات المركزية الأمريكية فى دعم جماعة الإخوان المسلمين على المستوى الدولى وعلى المستوى الوطنى والمحلي. ويُلاحظ دريفوس فى كتاب "لعبة الشيطان" أن الأصوليين الإسلاميين المتشددين، أصبحوا قوة مهمة بالنسبة للعديد من الأنظمة الحليفة للولايات المتحدة فى العالم العربي، فى السبعينات، حيث جرى توظيفهم إما لإقامة تحالفات سياسية مضادة للتيارات القومية واليسارية، على النحو الذى كشفته التحولات فى مصر وباكستان والسودان، أو فى الصراعات داخل أجهزة السلطة على النحو الذى كشفته التجربة الجزائرية والفلسطينية، أو جرى الاعتماد عليهم لاحتواء البدائل الأكثر تشددا على النحو الذى كشفته تجربة حركة الإصلاح الصومالية والتى يعتقد المراقبون أنها كانت، فى بدايتها، فرع جماعة الإخوان المسلمين فى شرق أفريقيا، ثم اقتصرت على الإخوان فى الصومال، والتى ظهرت من خلال النشاط الدعوى السري، فى عهد محمد سياد بري، الذى أطاحت به المعارضة القبلية المسلحة فى عام ١٩٩١.

وتشير بداية التشكيل السياسى لحركة الإصلاح الصومالى إلى صلاتها بالسعودية وبالتنظيم الدولى للإخوان المسلمين، إذ تأسست حركة الإصلاح فى الرياض عام ١٩٧٨، على يد خمسة من شباب الحركة الإسلامية، وانضمت فى العام نفسه إلى التنظيم الدولى للإخوان المسلمين، وأصبحت ممثلة له فى منطقة القرن الأفريقي. وبدأ نشاطهم السياسى مع تدشين المرحلة الانتقالية فى الصومال بعد مؤتمر عرتا للمصالحة الصومالية الذى انعقد فى جيبوتى فى عام ٢٠٠٠، من خلال حركة الإصلاح الإخوانية التى كان لها حضور كبير فى المؤتمر، والذى يُعتقد أنه تم بناء على دراسات واقتراحات قام ببلورتها كوادر من المكتب السياسى للحركة، التى كانت جهودها تتركز قبل ذلك فى مجال الصحة والتعليم والإغاثة والدعوة وغيرها، واستطاعت تقديم نموذج إسلامى رائد، وبدأ صعودهم من خلال البرلمان، ثم الرئاسة. ولفتت انتباه الولايات المتحدة كقوة قادرة على احتواء حركة الشباب المرتبطة بتنظيم القاعدة، وكان صعود الحركة فى الصومال وصعود حزب العدالة والتنمية فى تركيا تأثير كبير على توجيه السياسة الأمريكية للتعامل مع تحدى الجماعات الإسلامية المسلحة فى المنطقة، والتفكير فى الاعتماد على جماعة الإخوان المسلمين فى إحداث تغييرات تخفف من حدة الأزمات التى تواجهها الحكومات فى المنطقة.

اللافت للنظر فى هذا الصدد هو السياسة الإسرائيلية التى عملت على تشجيع التشدد الإسلامى فى مواجهة خصومها، لاسيما منظمة التحرير الفلسطينية، حيث عملت على دعم حركة المقاومة الإسلامية حماس المرتبطة بجماعة الإخوان على التواجد فى قطاع غزة وفى الضفة الغربية لتحدى سلطة حركة فتح والفصائل الفلسطينية المنضمة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وشجعت أيضا تمرد جماعة الإخوان المسلمين ضد نظام البعث فى عهد الرئيس حافظ الأسد فى السبعينات. وتشير تقارير ودراسات إسرائيلية وأمريكية إلى أن الإسلاميين فى الضفة الغربية والأردن ازدهروا بعد حرب عام ١٩٦٧ فى كل من الضفة وقطاع بتشجيع من الأردن فى سياق صراعه مع فتح وقيادة منظمة التحرير فى أعقاب المواجهات بين الجيش والفصائل المسلحة فى عام ١٩٧٠ وأيضا بتشجيع من إسرائيل. واستند هذا الدعم إلى تحالف قائم بحكم الأمر الواقع ضد الخصم المشترك المتمثل فى منظمة التحرير الفلسطينية التى أصبحت المعبر عن الهوية الوطنية الفلسطينية والتى تقود حركة التحرر الوطنى الفلسطينية. وبدأت الجماعة توسع نشاطها بين فلسطينيى ١٩٤٨ بعد الحرب.

فى حين حدثت تحولات حادة فى العلاقة بين حماس وإسرائيل، خصوصاً فى أعقاب انتفاضة الأقصى فى عام ٢٠٠٠، والتى أخذت طابعاً أكثر عنفاً مقارنة بانتفاضة أطفال الحجارة (١٩٨٧-١٩٩٣)، استمرت الحركة الإسلامية داخل إسرائيل فى النمو، وخاضت انتخابات الكنيست ضمن قوائم عربية مشتركة، إلى أن انسحبت من القائمة العربية المشتركة التى تضم أيضاً الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة والتجمع الوطنى الديمقراطى والحركة العربية للتغيير، وخاضت الانتخابات منفردة تحت اسم القائمة العربية الموحدة برئاسة الدكتور عباس منصور، الذى أبدى استعداداً للتقارب مع نتياهو إذا كان ذلك يصب فى مصلحة العرب، مثل وقف العنف ووقف هدم البيوت، وزيادة ميزانيات البلديات العربية. ويشير انسحاب الحركة الإسلامية من القائمة العربية المشتركة إثر خلافات بسبب تصويت بعض مكونات المشتركة على قانون يمنع تعذيب المثليين، وتأييد شركة مقرها مدينة الناصرة دعمت منظمة يهودية تمثل المثليين، معتبرة ذلك متناقضًا مع الشريعة الإسلامية. وشجع موافقة القائمة العربية الموحدة التى تمثل الحركة الإسلامية فرع الجنوب، قانون يهودية الدولة الذى اقترحته الأحزاب الصهيونية فى الكنيست وعارضه أعضاء الكنيست الدروز والعرب، أحزاب اليمين الدينى الإسرائيلية على الترويج لفكرة تقاربها مع القائمة الموحدة على أرضية على الحفاظ على القيم الدينية والأخلاقية للمجتمع.

خريطة التناقضات والتحالفات بعد الحرب

مرة أخرى، تبرز جماعة الإخوان المسلمين وفصائل تيار الإسلام السياسى المتحالفة معها، كلاعب رئيسى على الساحتين الوطنية والإقليمية يسعى للاستفادة من التطورات الإقليمية لتعزيز وجودها من ناحية، وزعزعة خصومها من الحكومات العربية والأحزاب السياسية العربية التى لا تتبنى أجندة إسلامية تقوم على فكرة الدعوة لتطبيق الشريعة الإسلامية. لقد لعبت الجماعة دوراً واضحاً فى الخمسينات والستينات فى مواجهة الأنظمة البعثية والاشتراكية فى الدول العربية من خلال تحالفها مع الأنظمة الرجعية الحليفة للولايات المتحدة والتى تقاطعت مصالحها مع مصالح إسرائيل التى تخوض حرباً ضد هذه الأنظمة وضد الفلسطينيين، وتسعى لإحكام سيطرتها على فلسطين وهيمنتها الإقليمية. وسعت إسرائيل لاستغلال التناقضات فيما بين هذه التيار وخصومها وقدمت أشكالاً من الدعم المباشر وغير المباشر، رغم إدراكها طبيعة العداء بينها وبين هذه الحركات الأصولية، والتى من المتوقع أن تزداد حدتها مع صعود الأحزاب اليمينية والدينية المتشددة فى إسرائيل، إلا أن هذا الصعود وما ترتب عليه من احتدام المواجهة أعطى دفعة قوية لتيار الإسلام السياسي، لكن هذه المرة على خلفية المواجهة مع إسرائيل فى أعقاب هجوم أكتوبر ٢٠٢٣. ورغم هذا سعت إسرائيل إلى استغلال التناقضات داخل معسكر الإسلام السياسى والتى تتمثل فى التناقضات فيما بين جماعة الإخوان المسلمين التى نجحت فى الوصول إلى السلطة فى أعقاب الانتفاضات فى البلدان العربية فى عام ٢٠١١، من خلال اتباعها نهجاً يقوم على التقارب مع الولايات المتحدة والقوى الغربية من أجل إيجاد حكومات أكثر استقرارا، مستغلة اعتقاداً راسخا يتنامى لدى الإدارة الأمريكية والدوائر الغربية بأن فصائل الإسلام قادرة على تحقيق الاستقرار لأنها تتبنى نهجا يتفق مع المزاج العام فى المنطقة الذى يميل إلى التدين، مع إبداء استعدادها للتوصل إلى تفاهمات مع إسرائيل والدول الغربية لم تستطع الحكومات العربية القائمة التوصل إليها.

لقد كشفت التطورات فى سوريا فى أعقاب الإطاحة بحكم البعث وهروب الرئيس بشار الأسد وأركان حكمه وتفكك الجيش السورى عن خريطة جديدة للتناقضات والتحالفات فى سوريا وعلى المستوى الإقليمى قائم على حشد التيار الإسلامى الذى يغلب عليه الطابع السلفى السنى المناهض لإيران الشيعية وحلفائها الذين دعموا نظام الأسد. وتضع الخريطة الجديدة البازغة للتناقضات والتحالفات، التى تتسم بطابع غير مستقر وسريع التقلب، الأمر الذى سينعكس سلبًا على القضية الفلسطينية، والقوى الفلسطينية المنخرطة فى الكفاح ضد السياسات الإسرائيلية. ومن غير المرجح أن يتمكن النظام الجديد فى سوريا، الذى يعتمد بقاؤه على دعم قوى خارجية لها مصالح متعارضة، على النحو الذى أظهرته المواجهات الأخيرة فى محافظة السويداء. فى ظل هذا الوضع تبرز خطورة التشهير بمصر وسياساتها الداعمة للقضية الفلسطينية والتى ترى ضرورة لإنهاء الحرب لوقف النزيف الفلسطينى المتواصل.

بقلم: أشرف راضي